

أسرار المتقدم الآسيوي

تأملت طويلا في أسرار تقدم بلدان جنوب وشرق آسيا بتلك المعدلات العالية ، التي أصبحت مضرب المثل في مجال التنمية ، وموضع الدهشة من البلاد الغربية ، وكذلك نموذجا للمقارنة مع البلاد العربية التي سعت إلى التقدم في نفس الوقت الذي سعت هي الأخرى فيه ، بل ربما قبلها بعشرات السنين .

وسوف أعرض هنا لعدد من العوامل وراء نجاح هذه البلاد ، وفي مقدمتها أن شعوبها تقدس العمل . ولما تركن كثيرا لأحلام النوم أو أحلام اليقظة . ومن أهم ما يميز الشعوب الآسيوية أنها قليلة الكلام ، وبالتالي فهي قليلة الجدل حول أمور لا تقدم ولما تؤخر ، والدليل على ذلك أنها لم تضيع وقتا طويلا في كيفية البحث عن وسائل التقدم ، وإنما ركزت على مجال واحد هو مجال المحاكاة ، أي تقليد النماذج الناجحة في كل الميادين . فقد قلدوا صناعة السيارات الغربية حتى تفوقوا عليها ، كما قلدوا أساليب الزراعة المتطورة حتى برزوا فيها ، ولأنهم بطبيعتهم تجار مهرة فقد استطاعوا أن يسوقوا ما ينتجون ، سواء على المستوى المحلي أو العالمي .

وهنا سر يقف وراء تفوقهم يرجع إلى احترام مكانة كل شخص ووظيفته ، وقد يقال أن في ذلك نوعا من الطبقة الاجتماعية ، ولكنها عند التحليل عبارة عن طبقية ديمقراطية بمعنى أن كل فئة من فئات المجتمع تعرف وظيفتها جيدا ، وتكرس جهودها للإلتقان فيها دون الانشغال بأحوال ومكاسب الفئات الأخرى . وكأنهم بذلك يسرون على المبدأ الموجود عندنا (كل ميسر لما خلق له) . في ماليزيا مثلا توجد أعراق متنوعة ، ومع ذلك لا يتدخل أحد في عادات الآخر وتقاليده ومعتقداته . فالكل مواطنون يعملون ويتعايشون وينعمون أخيرا بنتائج أعمالهم . الأمر اللافت للنظر بحق هو المحاولة المستمرة للإلتقان ، دون كثرة الحديث عنه . فالمنتجات الزراعية تم تطويرها على نحو مذهل ، وكذلك المنتجات الصناعية والإلكترونية .

وهناك تزاوج بين الجامعات ومراكز البحوث وبين مؤسسات الإنتاج من أجل تحسينه ، وكل ما يعترضه من مشكلات . كما أن تشجيع المشروعات الصغيرة يسير جنبا إلى جنب مع المشروعات الكبرى أو العملاقة التي لا تقدر عليها سوى الدولة . المصانع اليدوية الصغيرة منتشرة في البيوت . والأسرة بكل أفرادها تعمل : فهناك من يشتري الأدوات الأولية ، وهناك من يقوم بتصنيعها ، وهناك أيضا من يقوم بتسويقها . ولما تحس بأن قبضة الحكومة على هذه المشروعات الصغيرة قوية أو غائبة ، وإنما هي متروكة للعرض والطلب . والواقع أن الطلب متزايد ، والعرض مستمر في محاولة الجودة والإلتقان .

كنا في الماضي لا نثق إلا بالإلكترونيات التي تصنع في اليابان ، ثم ما لبثت الصين وكوريا أن أصبحتا منافسين لها ، وأخيرا دخلت إندونيسيا وماليزيا وتايوان .. هل تعلم مثلا أن منتجات هذه الأخيرة التي أغرقت العالم والبلاد العربية يتم تصديرها بدون وزارة للتجارة الخارجية ، وإنما من خلال محلات ومصانع صغيرة للغاية ، يتواجد فيها تجاريقدهمون لكل زبون ما يحتاج إليه ؟ !

الطبيعة جميلة جدا في بلدان جنوب شرق آسيا . كما أنها أحيانا قاسية ببراكينها وزلازلها وفيضاناتها المدمرة ، ولكن الإنسان استطاع أن يعيش فيها ويتعايش معها ، وأن يبني حضارة متميزة ، أصبحت محط أنظار السياح في العالم .

سألني صديقي : باختصار ما هي أهم عوامل تقدم هؤلاء الناس ؟ قلت له : يعني تريد من الآخر ؟ قال : أجل . قلت : قلة الكلام ، والعمل المتواصل ، والإلتقان . وبالمناسبة من أهم ما لاحظته عندهم هو عدم وجود مديعة ربط في التلفزيون !!